

أنقذنه جارية

فأنقذ الله بسببه أمةً من الناس

أ.د. صغير بن محمد الصغير





﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ثَمَّة لحظات يصنع الله فيها للعبد حياةً جديدة، يكتبها له بلطفٍ خفيٍّ، وبرحمةٍ تُرسل في هيئة يدٍ تمتد أو كلمة تُقال أو خطوة يُصرف عنها. ومَنْ تأملْ سنن الله علم أن النجاة ليست مصادفة، ولا حادثة عابرة؛ بل هي اختيارٌ من الله لعبده، وتمهيدٌ لطريقٍ أراد له أن يسلكه.

ومن ذلك ما كتبه شيخنا الدكتور الفاضل محمد البراهيم الحمد -حفظه الله- وهو يتحدث عن سيرة العالم المربي الشيخ محمد بن عمر آل رحمة -رحمه الله- قال حفظه الله: "ومن أخبار الشيخ محمد العمر في صباه لما كان في الكويت أنه لما كان في الرابعة من عمره وقعت له حادثة كادت تودي بحياته لولا لطف الله؛ ذلك أنه كاد أن يغرق في البحر، إذ أنقذته جاريةٌ كانت قريبةً من البحر،

فجزاها الله خير الجزاء وأحسن مُثوبتها، وكتب لها
أجر ذلك الإنقاذ وما ترتّب عليه مما قام به ذلك
الرجل المبارك من نفعٍ خاص وعام".^(١)

كان المشهد بسيطاً في أعين الناس: طفلٌ يتعثر عند
الشاطئ، فيختطفه موج البحر، فتلمحه جارية
فتجود بما تملك من قوة وتلتقطه.

غير أن لطف الله له أسرار لم نعلمها بعد...

فهو طفلٌ أراد الله له أن يعيش، ليكون بعد سنين
معلماً للخير، وهادياً لطائفة من خلقه، ومرتبياً لجيل
من العلماء والحقّاق وطلاب العلم.

فلو غاب ذلك الطفل في لجة الماء، لغاب معه نورٌ
نفع الله به الكثير.

(١) انظر: "سيرة الشيخ محمد بن عمر آل رحمة" لـ محمد بن

إبراهيم الحمد (ص ١١).

ومن تأمل هذه القصة؛ يدرك معنى قوله ﷺ: "مَنْ
فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ
كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ". (١)

كما يدرك أن سُنَّةَ اللَّهِ فيمن يُحَسِّن: أَنْ يُجْرِيَ الْخَيْرَ
عَلَى يَدَيْهِ مَا دَامَ يَقْصِدُهُ، وَيَمُدُّهُ بِمَا لَا يَخْطُرُ عَلَى
بَالِهِ.

وليس هذا الحدث الفريد بدعاً من رحمة الله، بل
جَرَى مِثْلُهُ مَعَ أَوْلِيَائِهِ وَأَنْبِيَائِهِ وَالصَّالِحِينَ عَلَى مَرِّ
التَّارِيخِ:

فهذا موسى عليه السلام تنقذه يدٌ لا تدري أنها إنما
تحفظ نبياً سيقود أمة، وهو رضيع في تابوت على
صفحة ماء النيل. (٢) ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ

(١) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٦٩٩).

(٢) ذكرها الله جل وعز آيات سورة [القصص: ٧-١٤].

عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ
وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾

ويوسف عليه السلام يُنتشل من غيابة الجب،
ليكون بعد سنين وزيراً يُنقذ الله به أهل مصر وما
حولها. ﴿٢﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ
مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

وإبراهيم عليه السلام يُنقذ من النار، فيجعل الله
سلام تلك اللحظة بداية إمامة في التوحيد. ﴿٤﴾ قُلْنَا
يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۚ وَأَرَادُوا بِهِ
كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٥﴾

(١) [القصص: ٩].

(٢) [يوسف: ١٥-٥٤].

(٣) [يوسف: ٢١].

(٤) [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

(٥) [الأنبياء: ٦٩-٧٠].

ومحمد ﷺ يُحفظ في الغار، ثم تخرج من بين يديه
أعظم رسالة عرفتها البشرية. (١)

وكذلك من العلماء:

البخاري يُردّ عليه بصره في طفولته، فيكتب الله له
أن يجمع أصح كتاب بعد القرآن. (٢)

والذهبي يصبح من كبار أئمة الحديث، لكلمة
سمعها من شيخه البرزالي، إذ رأى خطه، فقال له:
"إن خطك يشبه خط المحدثين" فجعل الله كلمته
تلك سبباً في عناية الذهبي بحديث رسول الله ﷺ. (٣)
وصلاح الدين ينجو صغيراً من هجوم صليبي، ليهيئه
الله لتحرير القدس. (٤)

(١) انظر قصة الغار في صحيح البخاري رقم (٣٦٥٣).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (٣٢٩/٢).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٢٣/٣٠).

(٤) نجا - رحمه الله - من حصار دمشق عام ٥٤٣هـ، للاستزادة

انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (١٥٦/٩).

وعبد الرحمن الداخل ينجو من القتل، فيقيم دولةً
تبسط ظلها قروناً. (١)

وهكذا يظهر أثر النجاة، لا في حياة الناجي وحده،
بل في حياة أمم تمتد آثارها بعد موته بسنين، بل
بقرون طويلة.

(١) انظر: العبر لابن خلدون (٧٢٢/٧).

عِبْرٌ تُسْتَخْرَجُ مِنَ الْمَدَدِ الْإِلَهِيِّ:

١- أن الله لطيفٌ بعباده، يريُّ لهم أسباب النجاة قبل أن يشعروا بها، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾^(١)، فليس اللطف في أن يدركه الإنسان فحسب؛ بل اللطف الحقيقي يكون خفياً، إذ يأتي -ة- جاريةً أو موقفٍ عابر، لكنه يصنع حياة كاملة.

٢- أن الأجر يجري على من يتسبب في إنقاذ ياة أو شفاء مريض أو دفع -رر أو حتى بكلمة عابرة، فكلّ من أنقذ نفساً، أو عالج مريضاً، أو منع موتاً، أو صرف أذى، كتب الله له من الأجر بقدر ما ينتج عن تلك الحياة التي أنقذت. والجارية التي أنقذت الشيخ لم

(١) [الشورى: ١٩].

تنقذ شخصاً واحداً؛ بل أنقذت أثره،
وعلمه، وطلابه، ومن تخرّج على يديه من
العلماء والحفاظ والصالحين.

٣- أن التوكل واليقين هما روح النجاة، فمن
سلم أمره لله، تولى الله حفظه وتدبيره، ومن
اتكل على حوله ضاع، ومن اتكل على رب
العالمين نُصر.

٤- أن نجاتك من حادث أو مرض أو خطر
رسالة من الله لك لا ينبغي إهمالها، فالله لم
ينقذك عبثاً، بل حفظك لحكمة،
واصطفاك لمسؤولية، وادّخر لك عملاً لم
يؤده غيرك.

وهكذا...

كانت يد الجارية، وهي يدٌ ضعيفة لا تملك من الدنيا
شيئاً، سبباً في حياة رجل جعل الله على يديه نور
علمٍ وهدى وصلاح.

وكم في الحياة من قصصٍ مشابهة لا نعلمها، يحرك
الله فيها الأقدار كيف يشاء، ليحفظ عبداً، أو يرفع
قدراً، أو يمنح الدنيا بقاء علمٍ لا يُطفأ.

فאלلهم كما أنقذت، فبارك فيمن أنقذت.

وكما حفظت، فاجعل حفظك مقدمة لهداية.

وكما جمّلت أَلطافك بعبادك، فاجعل لنا منها
نصيبةً لا تنقطع آثاره.

كتبه:

صغير بن محمد الصغير

٢ جمادى الآخرة ١٤٤٧